

الفصل السادس

الإيمان

الإيمان

أولاً: الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً:

الإيمان لغة: التصديق، قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف مع أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا.

وشرعاً: هو نطق باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١).

ومن الأدلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

- قوله تعالى: ﴿لَيْسَتِيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

- قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

- وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وعن جندب بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتیان فتعلمنا الإيمان قبل أن

نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فزددنا به إيماناً^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله،

(١) فتح الباري (١/ ٤٥-٤٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٥١).

(٢) سنن ابن ماجه (١/ ٢٣) إسناده صحيح.

وأدائها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان^(١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب^(٢) نهبه يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(٣). والقول الصحيح الذي قاله المحققون في شرح هذا الحديث أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان^(٤).

والطاعات والأعمال الصالحة داخله في الإيمان، ومن الأدلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقد أطلق القرآن الكريم لفظ الإيمان على العمل في بعض الآيات ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية^(٥).

- ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقاً وإيماناً،

(١) مسلم (١/٦٣).

(٢) أي: لا يختلس شيئاً له قيمة عالية.

(٣) البخاري (٥/١١٩)، مسلم (١/٧٦).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٤١).

(٥) فقه النصر والتمكين ص ١٦٣.

وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان، ووجه الدلالة من الآية ما فسره رسول الله ﷺ حيث روى عبد الرزاق في مصنفه وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية (ليس البر... إلخ) والحديث رجاله ثقات^(١).

ثانياً: الإسلام والإيمان والإحسان:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلى أن قال يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم^(٢).

فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث؛ مسلم، ثم مؤمن، ثم محسن، والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً، كما أنه يريد بالإحسان مع الإيمان والإسلام، لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان^(٣). وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه، فإنه معرض للوعيد، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنه معرض للوعيد، فأما الإحسان وهو أعم من جهة نفسه وأخص

(١) فتح الباري، ك الإيمان، باب أمور الإيمان (١ / ٧٤).

(٢) مسلم رقم ٨ ك الإيمان.

(٣) المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية ص ١٤.

من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين^(١).

ثالثاً: أصل الإيمان:

أصل الإيمان، به يدخل العبد في الإسلام، وبه يكون اعتبار سائر الأعمال، وبصلاح ما في القلب أو فساده يكون صلاح الأعمال أو فسادها، قال ﷺ: **ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**^(٢)، فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، فالتصديق هو قول القلب، وهو المعرفة والإثبات لما دلت عليه الشهادتان. والحب: عمل القلب نحو المشهود لهما، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة أن لا إله إلا الله ومحمد بن عبد الله في شهادة أن محمداً رسول الله، فيحب الله ورسوله ﷺ ودينه. والانقياد: عمل القلب أيضاً، وهو القبول، وعقد العزم على الامتثال لما دلت عليه الشهادتان^(٣)، وينعقد أصل الإيمان بثلاثة أمور:

١- النطق بالشهادتين.

٢- قول القلب وهو العلم والتصديق بمعانيهما، وأن الرسول ﷺ صادق في كل ما أخبر به عن الله.

٣- عمل القلب، وهو قبول التوحيد والبراءة من ضده، والمحبة لله ولرسوله ولدينه والعزم على الانقياد لهما، فإذا جاء العبد بأصل الإيمان فهو مأمور مكلف بتكميل إيمانه، ليس له أمن في الحياة الدنيا ولا في الآخرة إلا بذلك، فإذا اجتنب العبد الطاعات، واجتنب المحرمات، فقد استكمل عرى الإيمان الواجب وأصبح في مرتبة المقتصد^(٤).

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: أن للإيمان فرائض وشرائع

(١) المنحة الإلهية ص ١٤٧.

(٢) البخاري رقم ٥٢ ك الإيمان.

(٣) أثر الإيمان في تحصين الأمة (١/١٩١).

(٤) المصدر نفسه (١/١٩٣).

وحدودًا وسنًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان^(١).

رابعاً: الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله عز وجل:

يقوم الإيمان بالله عز وجل على أسس من أهمها:

١- الكفر بالطاغوت: فُسِر الطاغوت بالشیطان، والساحر والكاهن، والأصنام^(٢)،

وهذا تفسير له ببعض أفرادها، وإلا فالطاغوت يطلق على كل من طغى وتجاوز حده وادّعى حقاً من حقوق الله التي تفرد بها^(٣).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا

انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ

عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]. وفي ذلك إشارة إلى أن التطهير مقدم على التزكية وأن تخليص القلب من أدرانها ونجاسته المتمثلة بالمعتقدات الباطلة وما يترتب عليها من محبة الطواغيت أو التعلق بهم واجب لحلول الإيمان بالقلب^(٤).

٢- الإيمان بالغيب: قال تعالى: ﴿الم ﴿ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ١-٣].

والغيب هو كل ما غاب عنك وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: آمنوا بالله

وملائكته ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت^(٥)، وقد

جمع الرسول ﷺ أصول الأمور الغيبية بتعريفه للإيمان في حديث جبريل عليه السلام حيث قال:

أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ^(٦)

٣- امتثال الأوامر واجتناب النواهي: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) صحيح البخاري مع الفتح (١/٤٥).

(٢) جامع البيان لابن جرير (٣/١٨، ١٩).

(٣) أثر الإيمان (١/٤٧).

(٤) المصدر نفسه (١/٤٤).

(٥) جامع البيان (١/١٠١).

(٦) مسلم، ك القدر رقم ٨.

لِيَعْبُدُونَ ﴿ الذاريات: ٥٦ ﴾، ففي هذه الآية بيان للحكمة التي خلق الله من أجلها الناس وهي أن يكلفهم بعبادته، بالامتثال لأوامره والانتهاز عن نواهيه، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] والسلم: هو الإسلام، والمراد بكافة: أي جميع شرائع الإسلام، ففي الآية يدعو الله المؤمنين إلى الأخذ بجميع شرائع الإسلام، وإقامة جميع أحكامه، وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه^(١).

٤ - الإخلاص لله في العبادة: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣].

فالإخلاص شرط في صحة العبادة وأساس مهم من أسس الإيمان بدونه لا يدخل العبد في ولاية الله، ولا يقبل منه عمل ولا يتحصل على ثمرات الإيمان وكراماته التي وعد بها عباده المؤمنين^(٢).

٥ - صدق المتابعة للنبي ﷺ: قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أفعاله وأفعاله وأحواله^(٣).

قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون صوابًا خالصًا. فالصواب: أن يكون على السنة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ والخالص: أن يخلص من الشرك

(١) جامع البيان (٢/٣٢٤).

(٢) أثر الإيمان (١/٦٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٣٩٢).

الجلي، والحفي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

٦- العلم: قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:

٥٥]. فالعلم أساس مهم في الإيمان بالله وركن بارز في دعوة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فدلّت آية سورة يوسف على أن طريق النبي ﷺ يقوم على ثلاثة أمور:

- التوحيد الخالص: القائم على فعل الطاعات واجتناب المحرمات مع الإخلاص لله في ذلك.

- الدعوة إلى التوحيد.

- العلم والبصيرة في ذلك كله^(٢).

وقد بين سبحانه أن التعليم من أخص وظائف النبي ﷺ وأنه أخرج به المسلمين من الضلال المبين، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فيجب علينا أن نعلم أهم المسائل والتي هي:

- العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

- العمل به.

- الدعوة إليه.

- الصبر على الأذى فيه.

والدليل قول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إن العمل الصالح يقوم على الإيمان، والإيمان يقوم على التوحيد.

والإيمان الذي يريده الله هو الإيمان الحي الفاعل، هو الإيمان المؤثر النامي، هو الإيمان

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥٢٥.

(٢) جامع البيان (١٣/٧٩، ٨٠)، أثر الإيمان (١/٧١).

القائد الموجه... الإيمان الذي ينفع صاحبه.. هو الإيمان الذي يغرس في قلبه فينمو ويزدهر وينير ويضيء ويزين هذا القلب بزيته ويملؤه في كل جوانبه وزواياه.. الإيمان الذي يمد أعصابه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده، ويلقي ظلاله على حياته وواقعه ويعطي ثماره له في ليله ونهاره، الإيمان الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين، هو الذي تنتج عنه الأعمال، ويضبط به السلوك، ويصلح به الواقع، وتستقيم به الحياة، الإيمان المعبر هو الذي يبعث على الهمة والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة والثبات واليقين^(١).

خامساً: شرح بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإيمان:

١- زينة الإيمان: قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، لما كانت المعاصي بعضها كفر، وبعضها ليس بكفر، فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين، ولما كانت الطاعات كلها داخلية في الإيمان، وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها، فيقول: حُبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ فدخل في ذلك جميع الطاعات^(٢).

٢- نور الإيمان: قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقد فسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بكونه منور السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحد

(١) في ظلال الإيمان ص ٦٣.

(٢) الأمثال القرآنية (١/١٩٤) مجموع الفتاوى (٧/٤٢).

الأسماء الحسنى، والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ وهي أن أصل الإيمان يكون من الله عندما يشرح صدر عبده المؤمن للإسلام ويجعل له نوراً فيبدأ به النور والحياة، وقد شبه العلم المستفاد من الوحي الواصل للقلب بالزيت الجيد، فاستدامة النور وقوته وسلامته وتنامي حياة القلب إنما تكون بالعلم بالكتاب والسنة والعمل بهما، فهي غذاؤه ومادة حياته^(٢).

- إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفى كما تطفأ النار بفرغ مادتها^(٣).

- إن المثل دل على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بزيادة العلم الواصل للقلب المستفاد من نور الكتاب والسنة كما ينقص بنقصه، ومأخذ ذلك من المثل هو تشبيه العلم الذي يمد القلب بالمعارف والحقائق الإيمانية بالزيت الذي يمد المصباح بالوقود وكون المصباح يزيد ضوءه ويصفو بزيادة الزيت وجودته، والمؤمنون يتفاوتون بقوة النور الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان وأكمل المؤمنين نوراً هو النبي ﷺ لكمال علمه وإيمانه.

- إن المثل دل على أن النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذ ذلك هو تشبيه ذلك النور الذي يعلم معناه ولا تعتقل كلفيته بنور المصباح المحسوس فالتشبيه بالمحسوس يؤكد وجوده وحقيقته^(٤).

- هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة، من حيث إن كلا منهما في أصل خلقه وصنعه مهياً لاستدعاء وتشرب ما يناسبه، فالفتيلة تتشرب الوقود المناسب وتمتصه وتبلل به وتصبح مهياً به للاشتغال إذا أوقدت، وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوب

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠، الأمثال القرآنية (١/ ٣٦٠).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٠.

(٤) الأمثال القرآنية (١/ ٣٧٠-٣٧٥).

العباد عليها مهياً لاستدعاء ما يناسب ما فُطرت عليه من التوحيد والدين والحق، فإذا تشربت ما يرد إليها من ذلك من العلم بالكتاب والسنة، فإنها تكون مهياً لإيقاد مصباح القلب وقذف نور الإيـان به، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

فالله عز وجل فطر كل الناس على معرفته وتوحيده ومحبته وجبل نفوسهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام، والفطرة تزكى بالعلم المستمد من الكتاب والسنة وتطهيرها من مكايد شياطين الإنس والجن الذين يجتهدون في إفسادها^(١).

- إن المثل دل على أثر نور العلم والإيـان على العقل حيث أكسبه سلامة التعقل، وسداد النظر، وصحة الاستنتاج، وأن الطريق إلى الحق في كل المطالب الدينية إنما يكون بإعمال العقل المستنير بالوحي النازل على الرسول ﷺ لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وأن العقل المجرد عن العلم لا سبيل له إلى تلك الحقائق، كما دل المثل على أن النور سطع وأشرق على كل أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد، والعواطف، والإرادات، والانفعالات، فأخصبها بالخير والسلامة والصلاح^(٢).

- في قوله ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ دل على أن نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منها يغذي نور الإيـان، ويزيده ويقويه وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ دليل على أن النورين من الله، نور الإيـان الذي يقذف في القلب ونور العلم الذي طريقه الوحي، فمن هُدي إلى الأول واهتدى بالثاني فقد أعطاه الله نوراً تاماً، ومن أخطأه الله فليس له من نور بل هو في طريق من طرق الضلال سائر في الظلمات^(٣).

٣- روح الإيـان: قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا مَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي.. وسماه نوراً لما يحصل

(١) الأمثال القرآنية (١/ ٣٩٠-٤١٢).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤١٨).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٢٠).

به من استنارة القلوب وإضاءةها وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور، ولا سبيل إليها إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والاهتداء بما بعثوا به، وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشاركاً إليه بالزهد والفقہ والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباد فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال^(١).

سادساً: أسباب قوة الإيمان:

هذا الفصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به، معرفة واتصافاً، وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل، ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه، والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سبباً وطريقاً يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتهويه ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل:

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم^(٢)، وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمر كثيرة، منها:

١ - معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة والحرص على فهم معانيها والتعبد لله بها، فقد قال رسول الله ﷺ: إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة. أي من حفظها وفهم معانيها واعتقدها وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون، فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٤.

(٢) شجرة الإيمان للسعدى ص ٣٩.

وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنی هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه، وقوى يقينه، فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون هذه المعرفة متلقة من الكتاب والسنة، وما روى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة تجعل المؤمن في زيادة في إيمانه وقوة يقينه وطمأنينة في أحواله^(١).

٢- تدبر القرآن على وجه العموم: فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وهو العلاج الناجع لأمراض القلوب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، إنه موعظة من الله وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر نفاذاً إلى القلب والضمير؟ ففيه الشفاء لأمراض الشبهات والشهوات وأمراض الهوى والانحراف وأمراض الشك والشرك وأمراض القلوب والنفوس والجوارح والحواس وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة^(٢)، قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فهو غذاء للروح، وعلاج يشفي النفوس من عللها ويكسبها المناعة القوية^(٣)، ومن ثمرات تدبر القرآن: أنه وسيلة لمعرفة ما يريد الله منا، وكيفية عبادته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إليها، لأن القرآن الكريم منهج حياة أنزله الله عز وجل، وهو أساس التشريع الذي يجب على العباد أن يتدبروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه ليحققوا عبادة الله تعالى^(٤).

وإذا نظر إلى انتظام القرآن الكريم وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف تيقن أنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾

(١) شجرة الإيمان للسعدي ص ٤١.

(٢) الإيمان أولاً فكيف نبدأ به ص ١١٩.

(٣) هجر القرآن العظيم، د. محمود الدوسري ص ٥٦٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٦٦.

تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿﴾ [فصلت: ٤٢] وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه من التناقض والاختلاف أمور كثيرة قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [فصلت: ٨٢]، وهذا من أعظم مقويات الإيـمان، ويقويه من وجوه كثيرة فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، يحصل له من أمور الإيـمان خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله وفهم مقاصده وأسـاره؟ ولهذا كان المؤمنون الكامل يقولون ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيـمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

٣- معرفة النبي ﷺ: وما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيـمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيـمان ممن آمن به. وقال تعالى مشجعاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيـمان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ خَيْرًا إِذَا كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٦] وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه وأنه أكمل مخلوق، قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴿ [القلم: ١-٤] فهو ﷺ، أكبر داع للإيـمان في أوصافه الحميدة، وشئائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة، فهو الإمام الأعظم والقدوة الأكمل وقد ذكر الله عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو: هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِي لِلإِيـمَانِ﴾ بقوله وخلق، وعمله ودينه وجميع أحواله ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي: إيـماناً لا يدخله ريب، ولما كان هذا الإيـمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يجبها الله توسلوا بإيـمانهم: أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيـمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه، يبادر إلى الإيـمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته، بل كثير منهم مجرد ما يرى وجهه

الكريم، يعرف أنه ليس وجه كذاب^(١).

٤- التفكير في الكون والنظر في الأنفس: إن التفكير في الكون وفي خلق السموات والأرض وما فيهن، من المخلوقات المتنوعة، والنظر في الإنسان وما هو عليه من الصفات يقوى الإيمان لما في هذه الموجودات، من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمتها، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره والتهج بذكوره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره^(٢)، وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصًا ما تشاهده في نفسك، من أدلة الأفتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله، في جلب ما يحتاجه من منافع في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان ويقوى التعبد، فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها^(٣)، وكذلك التفكير في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإن هذا يدعو إلى الإيمان^(٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

٥- الإكثار من ذكر الله في كل وقت: ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكرًا لله، قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان،

(١) شجرة الإيمان ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٠.

بل هي روحه، ولذا آثار نافعة في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها:

أ- الحياة الطيبة الحقيقية:

فالحياة هي حياة الروح المتغذية بالوحي الإلهي، المتعلق قلب صاحبها بذكر الله، وهي التي وصفها الله بالحياة الطيبة بقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وبقوله أيضًا: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. فذكر الله تعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وعلى هذا فحياة الروح والقلب هذه، لا يجيها ولا يذوق طعمها إلا الذاكِر لله سبحانه وتعالى، كما قال المصطفى: مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت^(٢)، فما بين الذاكِر والغافل هو ما بين الحي والميت وشتان ما بينهما^(٣)، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها حتى قال قائلهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها؟ قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى، ومعرفته وذكره^(٤). فالذكر بين الغافلين هو كالحَي بين الموتى؛ حياة متكاملة في البدن والروح والشعور، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ب - القوة في الأبدان:

إن الذكر يعطي الذاكِر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه^(٥)، وشاهد

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٩).

(٢) البخاري، كالدعوات، باب فضل الذكر (١١/ ٢١٢).

(٣) ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع، عبد الرحمن خليفة ص ١٧١.

(٤) المصدر نفسه ص ١٧١.

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٢.

ذلك في موقف النبي ﷺ مع ابنته فاطمة وعلي رضي الله عنهما، لما سألته خادمًا وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلمها أن يسبحا كل ليلة إذا أخذتا مضاجعها ثلاثًا وثلاثين، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين، ويكبرًا أربعًا وثلاثين، وقال لهما: فهذا خير لكما من خادم^(١)، فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم^(٢).

ج - رقة القلب وخشوعه:

إن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب بالغفلة عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

د - النجاة من عذاب الله:

قال رسول الله ﷺ: ما عمل آدمي عملاً قط، أنجى له من عذاب الله من ذكر الله^(٣)، وهذه نهاية الغايات وأعظم المطالب وهي أول آثار الذكر وثماره، وأجل فوائده في المعاد^(٤).

هـ - من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكر رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه^(٥).

و- تكثير الشهود يوم القيامة:

فكل معالم الأرض تأتي شاهدة للذاكرين يوم تحدث الأرض أخبارها، فالجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها، قال ابن مسعود: إن الجبل لينادي

(١) البخاري، ك الدعوات، باب التكبير رقم ٦٣١٨.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/٤٥).

(٣) صحيح الجامع للألباني رقم ٥٦٤٤.

(٤) ذكر الله تعالى ص ١٧٥.

(٥) البخاري رقم ٦٤٧٩.

الجلل باسمه، أمر بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإذا قال نعم استبشر^(١).

٦- **معرفة محاسن الدين:** من الأسباب المقوية للإيمان معرفة محاسن الدين، فإن الدين الإسلامي كله محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعددها. وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه، كما امتن به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧]، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء، وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين^(٢).

ومن النماذج الرفيعة في القدرة على عرض محاسن الإسلام على الآخرين ما قام به جعفر بن أبي طالب عليه السلام في عرض الإسلام على ملك الحبشة وكان ذلك سبباً في إسلامه وهدايته، فقد قال جعفر رضي الله عنه وكان هو المتكلم عن المسلمين: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من دين الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدنا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فقال له النجاشي: وهل

(١) الوابل الصيب ص ١٠٦.

(٢) رواه النسائي بإسناد جيد، شجرة الإيمان ص ٥٢.

معك مما جاء به من الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم فقال له النجاشي: فاقراه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ [مریم: ١]. فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصافحهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا - يقصد القرآن الكريم - والذي جاء به عيسى - يقصد الإنجيل - ليخرج من مشكاة واحدة. أي من مصدر واحد- أي من عند الله تعالى - انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون - يخاطب عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة مندوبي قريش إلى النجاشي.. قالت أم سلمة رضي الله عنها: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاء به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(١)، ثم أسلم بعد ذلك النجاشي وحسن إسلامه وأسلم معه أساقفته وبطارقته وكثير من النصارى في تلك الديار^(٢).

كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذكاء وقمة المهارة السياسية والإعلامية والدعوية والعقدية فقد قام بالتالي:

- عدّد عيوب الجاهلية، وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوّة.
- عرض شخصية الرسول ﷺ في هذا المجتمع الآسن المليء بالردائل، وكيف كان بعيدًا عن التّقائص كلها ومعروفًا بنسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه فهو المؤهل للرّسالة.
- أبرز جعفر محاسن الإسلام وأخلاقه التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء، كنبذ عبادة الأوثان وصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدّماء، وإقامة الصلاة وإيتاء الزّكاة، وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية، فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء، التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام^(٣).

لقد نجح جعفر ﷺ بتوفيق الله في عرض محاسن الاسلام فأسلم الملك وكسبه إلى جانبه.

(١) مسند الإمام أحمد (١/٢٠٢-٢٠٣).

(٢) حقيقة الولاء والبراء، سيد سعيد ص ١٥٦.

(٣) السيرة النبوية للصّلاحي (١/٣٦١).

٧- الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خلقه، فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه، ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوم إيمانه ويقينه ويصل في ذلك إلى حق اليقين الذي هو أعلى مراتب اليقين، فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات، وهذا هو الإيمان الكامل وكذلك الإحسان إلى الخلق بالقول، والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع - هو من الإيمان ومن دواعي الإيمان، والجزء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله وأوصل إليهم من بره، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها: أن يقوي إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه وإخلاص العمل له وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله، ولعباده، فإن الدين النصيحة، ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق، فقد تحقق نصحه^(١).

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

- وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

[آل عمران، ١٣٤].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

- وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فالمحسنون يشعرون بمعية الله، يا له من شعور عظيم يستحقه المحسنون^(٢).

٨- الدعوة إلى الله: ومن دواعي الإيمان وأسبابه، الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن طريق الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقم الأدلة

(١) شجرة الإيمان ص ٥٣.

(٢) الاخلاق، عمرو وخالد ص ٣٨.

والبراهين على تحقيقها، ويأتي بالأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه، كما أن الجزء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه وروح وقوة وإيمان وحسن التوكل عليه، فإن الإيمان وحسن التوكل على الله يحصل به النصر على الأعداء، وشياطين الإنس وشياطين الجن^(١)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

٩- توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان: ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته، توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان، من شعب الكفر والفسوق والعصيان، فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك من دفع الموانع والعواقق، وهي الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها من المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القاذحة في علوم الإيمان المضعفة له والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان^(٢)، فإن الإيرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبتة والسعي لا تترك إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر ومقاومة النفس الإمارة بالسوء، فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تم إيمانه وقوي يقينه وصار مثل بستان إيمانه، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ومتى كان الأمر بالعكس، بأن استولت عليه النفس الإمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما انطبق عليه هذا المثل، وهو قوله تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

(١) شجرة الإيمان ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠.

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

- أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علمًا وحالًا.

- والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرية والباطنية، ويروي ما قصر فيها من الأول وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده وهذا الفتق برتقه^(١)، فعادوا إلى حالهم الكاملة وعاد عدوهم حسيبًا ذليلًا، وإخوان الشيطان ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار، ولذلك نكث من الدعاء: اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم^(٢).

١٠ - معرفة حقيقة الدنيا واعتبارها ممرًا للأخرة: ومن مقويات الإيمان

معرفة حقيقة الدنيا وأنها مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنِ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

إن الآية الكريمة السابقة فيها عشر جمل وقع التركيب من مجموعها، بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا بسرعة تقضيها وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب، وزين بزخرفه وجه

(١) شجرة الإيمان ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢.

الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح، أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس^(١)، وأخبرنا رسول الله ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] أي: واضرب يا محمد للناس «مثل الحياة الدنيا» في زوالها، وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشب، ونا، وحسن وعلاه الزهر، والنضرة، ثم بعد هذا كله «﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي: يابسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ أي: نفرقه، وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادر على الإنشاء والإفناء^(٢).

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، يقول تعالى مؤهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي: تفريغ نفس ﴿وَهُوَ﴾ أي: باطل ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: منظر جميل ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بالحسب والنسب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: يعجب الزراع ذلك النبات فإنهم أحرص الناس عليه، وأميل الناس إليه ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: ثم يجف بعد خضرته، ونضرتة، وتراه مصفرًا، أي: من اليبس ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا أي: هشيمًا منكسرًا، وكذلك الدنيا لا تبقى، كما لا يبقى النبات، الذي وصفناه، ولما كان هذا المثل دالًا على زوال الدنيا، وانقضائها لا محالة، وأن الآخرة كائنة وآتية لا محالة، حذرنا الله تعالى من أمرها، ورجبنا فيما فيها من الخير، فقال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية إلا: إما هذا وإما هذا، أي: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: هي متاع

(١) مباحث في إعجاز القرآن ص ٢١٦.

(٢) تفسير القاسمي (١١ / ٤٩).

زائل يغر، ويجدع من يركن إليها وإلى متاعها، فيغتر بها، وتعجب من يعتقد أنها لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنها حقيرة، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدار الآخرة^(١).

إن هذه الحقيقة التي أشارت إليها الآيات الكريمة، هي حقيقة الدنيا بكل متاعها، وزينتها، وما تشتهيه النفس منها، وإن كل ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيء تافه، وقليل وزائل، هكذا فهم المسلمون حقيقة الدنيا، فكان رسول الله ﷺ يبصرهم ويذكرهم بدورهم، ورسالتهم في الأرض، ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقده في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم وما رسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولد الحماس، والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل، أو ملل ودون خوف من أحد إلا الله، ودون طمع في مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور، وهذه الرسالة، لتحقيق هذه العادة في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة^(٢).

سابعاً: صفات المؤمنين:

عرض القرآن الكريم كثيراً من صفات أهل الإيمان، وتحدثت آياته الكريمة عن أهمها وأشهرها، ودعت المؤمنين إلى أن يتصفوا بها حتى يعيشوا حياة إيمانية مباركة سعيدة وحتى ينالوا جنة الله وثوابه ونعيمه. ولقد كان حديث القرآن الكريم عن صفات المؤمنين شاملاً ومتنوعاً، وقد توزعت سور القرآن في الحديث عن صفات المؤمنين في الفترة المكية والمدنية، وهذا يعطي أهمية لتذكير المسلمين بها حتى لا تنسى ولا تُهمَل ولكي يتربى على هذه الصفات والأخلاق عموم المسلمين^(٣)، ولا يمكننا حصر صفات المؤمنين في القرآن الكريم ولكن نقدم مجموعة من الآيات الواردة في بعض السور والتي تضمنت مجموعة من الصفات اللازمة لأهل الإيمان.

١ - سورة المؤمنين

- قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ص ١٩ إلى ٣٤.

(٣) في ظلال الإيمان ص ٧٩، ٨٠.

عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ١-١١].

فمن صفات هؤلاء المؤمنين في هذه الآيات الكريمة:

أ- الخشوع في الصلاة: قال ﷺ: ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله^(١).

والخشوع مطلوب في الصلاة لوجوه منها:

- لتذكر الله والخوف من وعيده كما قال عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

[طه: ١٤].

- إن الصلاة- أركاناً وواجبات وسنناً- روحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهديان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولو لم يكن القلب حاضرًا لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطراً، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها^(٢).

ب - الإعراض عن اللغو: واللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب والشتم والهزل، يعني أن لهم من الجهد ما شغلهم عن الهزل، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه

(١) مسلم ك الطهارة رقم ٢٢٨ شرح النووي (٣/ ١١٢).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦، تفسير المراغي (٥/ ٦).

الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف^(١). قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطل، وهو يشتمل عن الشرك، كما قاله بعضهم، والمعاصي، كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

[الفرقان: ٧٢].

ج - تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، قال ﷺ: الطهور شرط الإيثار، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها^(٢). قوله: «والصدقة برهان» معناه: الصدقة حجة على إيمان فاعلها، فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقد، فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه، فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة المجتمع من الخلل الذي ينشئه الفقر في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال^(٣).

د - حفظ الفروج: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

فالمؤمنون قوم يحبون العفة، ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل وهذه طهارة الروح، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع في غير حلال، وحفظ المجتمع من انطلاق الشهوات فيه بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب^(٤)، وحفظ الفرج يشمل تجنب إتيان الزوجة

(١) تفسير النسفي، تفسير الكشاف (٣/٢٦).

(٢) مسلم، ك الطهارة، باب فضل الوضوء رقم ٢٢٣.

(٣) الحياة في القرآن الكريم، أ حزمي جزوي.

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٤٥٥).

في الدبر وفي أثناء الحيض وفي أثناء الصيام والإحرام، وحفظ الفرج يقتضي سد الذرائع، أي تجنب السبل التي تفضي إليه ولهذا أمر القرآن الكريم المسلمين بغض البصر وعدم إبداء الزينة، فذلك أزكى لهم وأطهر^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]. ولكي يمكن الإسلام من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفة، فإنه يراعي الأمور التالية:

- إن الإسلام لم يجعل الزواج أبدئاً كالمسيحية مثلاً، فأباح الطلاق إذا وقع النفور بين الزوجين، وعند عجز الزوج أو مرضه أو إعساره أو غيبته.

- أباح للزوج الطلاق، والتزوج بأكثر من واحدة على أن يعدل بينهم.

- أمر الذي لا يستطيع مؤن النكاح بالصوم، ليدفع شهوته، ويحفظ فرجه وعفته، قال رسول الله ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء^(٢).

وبهذا فتحت الشريعة للمحصن كل أبواب الحلال، وأغلقت دونه باب الحرام^(٣). وفضلاً عن هذا فإن المجتمع الإسلامي الحقيقي يخالف المجتمعات القائمة جذرياً لصالح العفة، فنظمه وقوانينه تعاون الرجال والنساء على التعفف^(٤).

(١) الفضائل الخلقية في الإسلام لأحمد عبد الرحمن ص ٢٤٤.

(٢) مسلم، ك النكاح، باب استحباب النكاح رقم ١٤٠٠.

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي (١/٦٤٢).

(٤) الفضائل الخلقية في الإسلام، ص ٢٤٥.

هـ - رعاية الأمانة والعهد: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ [المؤمنون:

٤٨]، أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا، يل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعلمني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة وأنا يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»^(٢). فسمى الرسول ﷺ الولاية في هذا الحديث أمانة، لأن تأدية حقها بالعدل، وعدم الاستغلال الشخصي فيها، واليقظة على مصالح الناس، كل ذلك لا يكون إلا بخلق الأمانة^(٣)، روي عن أبي هريرة ؓ قال: بينما كان النبي ﷺ يحدث إذ جاء إعرابي فقال: «متى الساعة؟ قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

و- المحافظة على الصلوات: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

[المؤمنون: ٩] الذين على أوقات صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يؤدوها^(٥) فيها.

روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال:

- (١) مسلم، ك الإيهان شرح النووي (٢ / ٤٦).
- (٢) مسلم، ك الإمارة، رقم ١٨٢٥.
- (٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها (١، ٦٠٥).
- (٤) كتاب الرقاق باب رفع الأمانة ج (٦١٣١).
- (٥) تفسير الطبري (٩، ٢٠٠).

الصلاة على وقتها. قال: قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قال: قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه^(١).

٢ - سورة الفرقان:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿١٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٤﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

هذه صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا، الذين استوجبوا المثوبة منه، وجازاهم

على ذلك الجزاء العظيم، فمن هذه الصفات:

أ - السكينة والوقار: قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

[الفرقان: ٦٣] أي: بالسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله^(٢). فالْمُؤْمِنُونَ قوم لا يريدون في الأرض علوا، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وفي بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا

(١) مسلم، ك الإيبان رقم ١٣٧، شرح النووي (٢، ٧٣).

(٢) تفسير الطبري (٩ / ٤٠٧)

ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنها ينحط من صبيب، وكأنها الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع^(١). وتبين أن المؤمنين في الحياة الدنيا يتميزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، وهم لا يستكبرون، ولا يتجبرون، ولا يسعون فيها بالفساد، ذلك لأن الكبر له خطورته البالغة على الحياة البشرية، فلا يبقى في حالة وجود الكبر احترام لأحد، ولا هيبة لأحد، ولا حرمة لأحد، ولا أدب لأحد^(٢).

ج - الحلم: قال تعالى: ﴿...وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]: هم

حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا ولا يسفهون، هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟ خير ليل، صفوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون من الله جل ثناؤه فكاك رقابهم^(٣)، والحلم من الخصال المحمودة والتي يجيها الله عز وجل، قال رسول الله ﷺ: «لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يجبهما الله الحلم والأناة»^(٤).

د - إحياء الليل بالصلاة: من صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياءهم الليل

أو أكثره بالصلاة والطاعة، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمؤمنين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

- وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿ وَاللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿

[الذاريات: ١٧، ١٨].

- وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم، فهم

يتوجهون إلى ربهم تضرعًا وخفية، ليصرف عنهم عذابها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٧٩).

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢ / ٤٤٣).

(٣) تفسير الطبري (٩ / ٤٠٩).

(٤) مسلم، ك الإيذان، باب الأمر بالإيمان بالله رقم ٢٥.

رَبَّنَا اضْرِبْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٦﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٧﴾

[الفرقان: ٦٥ - ٦٦].

- قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيَلًا﴾ [المزمل: ٦].

فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كد النهار، أشد وطئًا وأجهد للبدن ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله وإيثارًا للإنس به، ومن ثم فإنها أقوم قِيَلًا، لأن للذكر فيها حلاوته وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافتها، وأنها لتسكب في القلب إنسًا وراحة وشفافية ونورًا، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحًا واستعدادًا وتهيؤًا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرًا فيه^(١).

هـ - القصد والاعتدال في الإنفاق: ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصد والاعتدال والتوازن في الإنفاق، وهم ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقتصرون في حقهم ولا يكفونهم، بل عدل خيار، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

و - عدم الشرك بالله والتحرج عن قتل النفس والزنا: ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم لا يشركون بالله، بل يخلصون لله العبادة ويفردونه بالطاعة، ولا يقتلون النفس إلا بالحق الذي يزيل حرمتها وعصمتها، كالكفر بالله بعد إسلامها، أو الزنا بعد إحصانها، أو قتل النفس، وتقتل بها^(٢).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ لَيْسَ لَهُ الْقِيَامَةَ وَيَجْزِيهِ فِيهَا مَهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٧٤٦).

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢ / ٤٥٠).

عُفُورًا رَّحِيمًا ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

ز - عدم شهادة الزور: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وشهادة الزور من أكبر الكبائر، فقد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال لأصحابه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً -: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور - أو قول الزور - وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»^(١).

ح - الانتفاع بموعظة القرآن: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

ط - الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

سئل الحسن البصري عن هذه الآية، فقال: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه، طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولد ولد أو أخواً أو حميماً مطيعاً لله عز وجل^(٢).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة: ﴿وَاجْعَلْنَا لَهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولأهل الشقاوة: ﴿وَاجْعَلْنَا لَهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وقال آخرون: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدداً إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعوه له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»^(٣).

(١) مسلم، ك الإبان رقم ١٤٧، شرح النووي (٢ / ٨٢).

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢ / ٤٥٧).

(٣) مسلم، ك الوصية رقم ١٦٣١، شرح النووي (١١ / ٨٥).

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفات المؤمنين في الحياة الدنيا، فلا نتوسع خشية الإطالة وإلا فصفات المؤمنين كثيرة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمنها: الإخلاص والصدق، والتوكل، ومحبة الله، والخوف والرجاء، والشكر، والصبر، والرضا والشجاعة وغيرها من الصفات الحميدة^(١).

ثامناً: من فوائد الإيمان وثمراته:

إن للإيمان الصحيح فوائد وثمرات عاجلة وآجلة في القلب والبدن والدنيا والآخرة، كما أن هذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة والجني اللذيذ والأكل الدائم والخير المستمر وأمور لا تحصى وفوائد لا تستقصى، ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة ودفعة الشرور كلها من ثمرات الإيمان الصحيح، وذلك أن شجرة الإيمان الصحيح إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها، عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل، ومن أعظم ثمار وفوائد الإيمان:

١ - **الاغتباط بولاية الله الخاصة:** التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون وأجل ما حصله الموفقون. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. فكل مؤمن تقي فهو لله ولي خاصة، ومن ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يدفعها من أنوار الخير العاجل والآجل وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان^(٢).

والتقوى من شروط ولاية الله الخاصة، ومن شروط التمكين لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا

(١) الحياة في القرآن الكريم (٢/٤٥٩).

(٢) شجرة الإيمان ص ٦٣، ٦٤.

فَأَخَذْنَا هُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، إن تقوى الله تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. ^(١) وللتقوى ثمرات عاجلة وآجلة منها:

- المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٣٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٣١﴾﴾ [الطلاق: ٣٠، ٣١].

- السهولة واليسر في كل أمر: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤٠﴾﴾ [الطلاق: ٤٠].

- تيسير العلم النافع: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- إطلاق نور البصيرة: قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

- محبة الله ومحبة الملائكة والقبول في الأرض: قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

قال رسول الله ﷺ: إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه

جبريل عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء، إن الله قد أحب فلانًا فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ^(٢).

- نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

فهذه المعية هي معية التأيد والنصرة والتسديد، وهي معية الله عز وجل

لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين وهي تقتضي التأيد والحفظ والإعانة كما قال

تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

(١) فقه النصر والتمكين للصَّلَبي ص ٢٠٤.

(٢) مسلم، ك البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠٣٠) رقم ٢٦٣٧.

أما المعية العامة مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].
والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله عز وجل.

- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضَّرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾
[آل عمران: ١٢٠].

- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعاف إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى يحفظ أبنائهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياح أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما وماهما^(١).

- سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

- سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [فصلت: ١٧-١٨].
- تكفير السيئات:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٤٧/٥).

- ميراث الجنة:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، فهم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل، وهم لا يذهبون إلى الجنة سيرًا على أقدامهم بل يحشرون إليها ركبانًا مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعًا لمشقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

- تجمع بين المتحابين من أهلها:

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].
ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴿٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب المسلمين تضيء على الأمة فيصا ربانيًا موصولًا بالله متصل حلقة الدنيا بالآخرة، كما أن الحرص على تقوى الله تعالى يكسب صفوف الأمة صفات رفيعة وأخلاقًا حميدة، ومكارم نفيسة تجعل هذه الأمة مؤهلة لقيادة البشرية نحو سعادتها.

٢- الفوز برضا الله تعالى: ومن ثمرات الإيمان الفوز برضا الله، ودار كرامته:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧١] فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة، بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم وكمّلوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله^(١).

(١) شجرة الإيمان ص ٦٥.

٣- **دفاع الله عن المؤمنين:** من ثمرات الإيمان، أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المكاره وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، أي: يدفع عنهم كل مكروه، يدفع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدفع عنهم الأعداء ويدفع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس - عليه الصلاة والسلام - وأنه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجبتنا له ونجينا من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿[الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، إذا وقعوا في الشدائد، كما أنجينا يونس عليه السلام. قال النبي ﷺ: دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين^(١) .

٤- **الحياة الطيبة:** ومن ثمار الإيمان الحياة الطيبة في هذه الدار وفي دار القرار، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

١. هذا وعد رباني لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بأن يتفضل الله عز وجل عليه بالحياة الطيبة، كما أن الله سبحانه قد شيد في موضع آخر صرح الحياة الناجحة على أساس الإيمان الصحيح والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إن الإيمان أساس الحياة الطيبة، ذلك لأنه يجعل صاحبه ثابتاً عالياً مثمراً في حياته، ثابتاً لا ترعزعه الأعاصير ولا تعصف به رياح الباطل، ولا تقوى عليه معاول الطغيان^(٢) .

٥- **حصول البشارة بكرامة الله:** والأمن التام من جميع الوجوه كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فلهم البشارة المطلقة والمقيدة وهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

(١) الجامع الصغير (٢/١٤).

(٢) الحياة في القرآن الكريم ص ٤٩٣.

يَلْبَسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿[الأُنعام: ٨٢].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأُنعام: ٤٨]، فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن، فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه وأمن من جميع المكارهِ والشُرور، وله البشارة الكاملة بكل خير كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتكَيِّفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسَنَتْ مَرْتَفَعًا ﴿ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [الحديد: ٢٨]، فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته ويمشي به يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ [الحديد: ١٢]، فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب ونال أعظم الثواب^(١).

٦- **حصول الفلاح والهدى:** ومن ثمرات الإيمان حصول الفلاح الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب والسلامة من كل مرهوب، والهدى الذي هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى، بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [البقرة: ٥]، فلا سبيل إلى

(١) شجرة الإيمان ص ٧٩

الهدى والفلاح للذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما، إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجلّ الوسائل، والفلاح أكمل الغايات^(١).

٧- الانتفاع بالمواعظ والتذكير: ومن ثمرات الإيمان الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات، قال تعالى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه علماً وعملاً، وكذلك معه الاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق ولا من العمل به، كما أن الإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات^(٢).

٨- قطع الشكوك التي تضر بالدين: ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء، فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال هذا: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليقل آمنت بالله، وليتته، وليتعوذ بالله من الشيطان.

فذكر ﷺ، هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك، وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوسوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به، كان من الآمنين، وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة، أعظمها، العلم أنه مناف للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل^(٣) ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

(١) شجرة الإيمان ص ٨٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٨٤.

٩- ملجأ المؤمنين: ومن ثمرات الإيمان وفوائده، أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل

ما يلزم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها، فعند المحاب والسرور يلجأون إلى الإيمان، فيحمدون الله، ويشنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم، وعند المكاره والأحزان، يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة، يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك، من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق، براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فأنقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ ﴿آل عمران: ١٧٣، ١٧٤﴾، لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله والثقة بوعده ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن، فلا يبطرهم ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه، ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله لا بحولهم ولا بقوتهم، ويلجأون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته فيها أعظم من نعمة العافية والرزق ويحرصون على تكميلها وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها والذي تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها، ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات، لجبر نقصها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ * [الأعراف: ٢٠١].

فالْمؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجروء على بعض الآثام، ثم يعود سريعاً إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها، فالْمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم، ملجؤهم إلى الإيمان ومفرعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه^(١).

(١) شجرة الإيمان ص ٨٧.

١٠ - المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة: ومنها أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة، قال رسول الله ﷺ: لا يزيي الزاني - حين يزيي - وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن^(١). ومن وقعت منه، فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد، والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له والرجاء القوي لثوابه والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمور التي هي من مكملات الإيمان لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح، فأخبر أن الإيمان إذا صحبه، عند وجود أسباب هذه الفواحش، فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها، فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق ووجود حلاوة الإيمان والحياء من الله، الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك، يمنع من مواجهة هذه الفواحش^(٢).

١١ - الشكر والصبر: ومن فوائد وثمرات الإيمان أنه يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء وكسب الخير في كل أوقاته، قال النبي ﷺ: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء، شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن^(٣)، والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته، فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك، وبذلك تتم عليه النعمة ويجتمع له عند الضراء ثلاث نعم، نعمة تكفير السيئات ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب والتمرن على الصبر هانت عليه وطأة المصيبة وخف عليها حملها^(٤).

١٢ - تأثيره على الأعمال والأقوال: ومن فوائد وثمار الإيمان أن جميع الأعمال

(١) مسلم (١/٥٦-٥٤).

(٢) شجرة الإيمان ص ٨٨.

(٣) صحيح مسلم (٨/٢٧٢).

(٤) شجرة الإيمان ص ٨٢.

والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص، ولهذا ذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. والسعي للأخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدي منها، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ، فإذا تأسست على الإيمان وانبتت عليه، كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة، وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول، قال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك لأنه أسس على غير الإيمان بالله ورسوله، والذي روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]، فهم لما فقدوا الإيمان وحل محله الكفر بالله وآياته، حبطت أعمالهم، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية والقادحة فيه والمنقصة له تجب ما قبلها^(١).

١٣ - هداية الله إلى الصراط المستقيم: ومن فوائد وثمرات الإيمان أنه يهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ولو لم يكن من ثمرات الإيمان إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل

(١) شجرة الإيمان ص ٦٩، ٧٠.

وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب الله ربه، وطمعه في فضله، فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. ولهذا تجد اثنين تصيبهما مصيبة واحدة أو متقاربة، وأحدهما عنده إيمان والآخر فاقد له، تجد الفرق العظيم بين حالتهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه^(١).

١٤ - محبة الله والمؤمنين من خلقه: ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي: بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عبادته، حصلت له السعادة والفلاح، والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين، من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والافتداء به، وحصول الإمامة في الدين، وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يبتدون بأمره، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين - اللذين هما رأس الإيمان وكماله - نالوا الإمامة في الدين^(٢).

١٥ - رفع الله لمكانتهم: ومن فوائد وثمرات الإيمان رفع مكانة أهله عند الله عز وجل وعند خلقه قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عبادته في الدنيا والآخرة، وإنما نالوا هذه الرفعة بإيمانهم الصحيح وعلمهم وبيقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان^(٣).

هذه بعض الفوائد والثمار من الإيمان الصحيح، ومما تقدم يتبين لنا أن شجرة الإيمان من أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها، وأن عروقتها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة المؤيدة

(١) شجرة الإيمان ص ٧٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٦.

والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر السميت الحسن والهدي الصالح، والخلق الجميل، واللهج بذكر الله وشكره والثناء عليه، والنفع لعباد الله بحسب القدرة، نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن ونفع المال، وجميع طرق النفع، وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه، وأن الفضل في ذلك كله لله وحده والمنة كلها له سبحانه ﴿بَلِ اللَّهِ يُمَنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[الحجر: ١٧].

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها وتبوءوا منازلهم معترفين بفضل ربهم العظيم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أُوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعتبارهم وثناؤهم على الله بنعمه وفضله، حيث وصلوا إلى المنازل العالية، وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله^(١).

إن من شروط التمكين لهذه الأمة تحقيق الإيمان بكل معانيه وجميع أركانه وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه^(٢)، قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥-٥٦].

(١) شجرة الإيمان ص ٩٤.

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ١٦١.